

خالد حسين عبد الله

النهضة في الفكر العربي المعاصر

دراسة مقارنة في فكر حسن حنفي ومحمد عابد الجابري

(القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠١٠). ٤٦٦ ص.

محمد حمّود

باحث وأستاذ جامعي - لبنان.

- ١ -

في الفكر العربي المعاصر؟ ما أسباب فشل المحاولات النهضة الحديثة؟ ما محددات الفكر النهضوي أو الموقف الحضاري؟ ثم؛ ما الاستراتيجية التي يضعها الفكر العربي المعاصر المتمثل بفكرهما لتجاوز فشل «النهضة» والمضي نحو النهوض والتجديد الحضاري من جديد؟

صحيح أن الكاتب يحرص على الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال فكر حنفي والجابري، ومع أنه يضيف إلى أنه سيعرض أيضاً مواقف التيارات العربية الحديثة والمعاصرة من هذه القضايا، نظراً لارتباط موقف حنفي والجابري بمواقف التيارات العربية؛ مع ذلك فإن هذا الأمر جاء غاية في التواضع، إضافة إلى سيطرة الناحية النظرية والتنظيرية التامة على الكتاب، وغياب أي إشارة إلى حركات «نهضوية» تسلمت السلطة لعقود طويلة من مثل الناصرية وحزب البعث.

يمتاز الكتاب بالتقيد بشكل من أشكال المنهجية الصارمة - أغلب الظن أنه أطروحة

يعالج خالد عبد الله في كتابه هذا، الذي هو أقرب إلى الرصد والتحليل، موضوع النهضة في الفكر العربي المعاصر من خلال فكرَ علّمين بارزين من أعلام الفكر العربي الحديث هما حسن حنفي ومحمد عابد الجابري.

يبرر الباحث اختياره لهذين العلّمين بأن مشروعهما - حسب رأيه - من أهم وأشمل المشروعات العربية الفكرية المعاصرة، ولأنهما ينتميان إلى تيارين فكريين مختلفين. إذ إن حسن حنفي ينتمي إلى التيار الإسلامي، فيما الجابري إلى التيار القومي، وهما تبنيًا التنظير للثقافة والفكر (تحليل الشعور الجمعي، تأويل المخزون النفسي، تحليل البنية العقلية) كمدخل للإصلاح والنهضة.

يطرح المؤلف بعد ذلك عدداً من الأسئلة التي لو يستطيع العرب الإجابة عنها بشكل صحيح، لتجاوزوا الكثير من المآسي التي يعانونها، من مثل: ما هو مفهوم النهضة

إليها بعد، فنحن ما زلنا في مرحلة الإصلاح الديني».

أما النهضة عند الجابري فتأخذ معنى الحداثة (الوحدة والتقدم)، ومع أنهما يختلفان في غير نقطة، إلا أنهما يتفقان في أهمية انطلاق الإصلاح والنهضة وبناء الحداثة من تراث وثقافة الأنا.

كما يتفقان في أن العقلانية والتنوير، وكذلك الحداثة، موجودة في كل تجربة حضارية، وتحمل فيها خصوصيتها الثقافية لاختلاف التراث والثقافة من حضارة إلى أخرى.

- ٣ -

يتابع الباحث رصد أفكار حنفي والجابري فيتوقف عند محاولة الإجابة عن السؤال الأبرز - الذي ما زال قائماً حتى الآن - لماذا فشلت كل محاولات النهضة حتى الآن؟ فيأخذ عن حنفي قوله أنه منذ أكثر من مئتي عام تكونت أهداف سبعة للمشروع النهضوي العربي الحديث، وتلاقحت عليها تيارات الفكر العربي الرئيسة الثلاثة: الإصلاحية والليبرالية والعلمانية؛ وهذه الأهداف هي: تحرير الأرض من الاحتلال، تحرير الإنسان من القهر والاستبداد، والعدالة الاجتماعية وإعادة توزيع الدخل، ووحدة الأمة ضد التجزئة والقبلية والعرقية، وإثبات الهوية ضد التغريب والتبعية، والتنمية المستقلة والاعتماد على التراث وحشد الجماهير حتى يتحول الكم إلى كيف.

ويلاحظ انهيار تحقيق هذه الأهداف، بل وأحياناً الوقوع في نقيضها. ومع ذلك يرصد

جامعية - فهو يحرص منذ البداية على الإشارة إلى الدراسات السابقة ذات الصلة بموضوعه، منتقلاً بعد ذلك إلى تحديد المصطلحات - المفاتيح المستخدمة في الدراسة من مثل: النهضة، الفكر، العربي، المعاصر.

- ٢ -

ينتقل الباحث بعد ذلك إلى رصد معالم النهضة في الفكر العربي المعاصر فيلاحظ نشوء ثلاثة تيارات نهضوية في فكرنا العربي الحديث بعد «صدمة الحداثة» التي سببتها حملة نابليون (تلتقي جميعها في نموذج واحد (الغرب نمط للتحديث) وإن اختلفت فيما بينها في نقطة البداية؛ وهي: الدين في التيار الإصلاحية الديني، والعلم في التيار العلمي العلماني، والسياسة أو الدولة في التيار الليبرالي.

يعرض الباحث بالكثير من الاستشهادات آراء حنفي والجابري فيورد أن شعار «الثورة» توارى بعد هزيمة ١٩٦٧ وعاد الفكر العربي ليرفع شعار النهضة. وقد تمثل ذلك بالمشروعات الفكرية العربية المعاصرة، ومشروعات النهضة العربية التي يحكمها الموقف الحضاري وجبهاته الثلاث: الموقف من التراث العربي الإسلامي، الموقف من التراث الغربي، والموقف من الواقع الذي نعانيه.

يلاحظ الكاتب أن مفهوم النهضة عند حنفي هو المفهوم الغربي وهو يقوم على تعرية الواقع من كل غطاء نظري والتوجه إلى الإنسان والطبيعة، «وهي مرحلة لم نصل

بالموقف الحضاري وجبهاته، أو إشكالية الأصالة/المعاصرة، التراث/التجديد، وهذا الموقف أو الإشكالية يعانيتها الفكر العربي الحديث والمعاصر، وليس للعرب والمسلمين سبيل إلى الإصلاح إلا بحلها وتجاوزها.

ويتفق هذان المفكران، كما يلاحظ المؤلف، على وصف واقع الوعي العربي، أو الخطاب العربي بجميع تياراته السلفية والليبرالية والقومية بأنها ذات طابع سلفي، كما يتفقان في إعطاء الأولوية للعقلانية والوعي في إنجاز الإصلاح ووضع شروط النهضة، ويتفقان في عدم مطابقة الفكر العربي الحديث والمعاصر وأيديولوجياته للواقع فهي لا تفسره، ولا تعبر عنه في أهمية الانطلاق من واقعنا وقضاياها.

ورغم بعض التباينات بين هذين المفكرين، إلا أن موقفهما يتكامل في الدعوة إلى التعامل مع الواقع دون قراءته من خلال نص مسبق موروث أو وافد... والعمل على مواجهة التحديات: تحرير الأرض، الحرية، الديمقراطية، وحدة الأمة، التنمية... وذلك بإعادة تأويل وتفسير تراثنا القديم، والتراث الغربي لتنوير الجماهير، وتحريكهم نحو تجاوزها، وتحقيق مراميها، والاستقلال التاريخي التام للذات العربية من هيمنة النموذج - السلف.

وعلى المستوى السياسي، يرى المؤلف تكاملاً - أيضاً - في موقف المفكرين. فالجابري يرى أن واقع العقل السياسي العربي تحدد في ثلاث محددات بنيوية حكمت العقل السياسي العربي في الماضي ولا زالت تحكمه في الحاضر: (القبيلة والغنيمة والعقيدة) ودعا إلى نفيها تاريخياً،

الباحث اتفاق حنفي والجابري في أنه ثمة مكاسب نسبية ونجاحات حققتها النهضة العربية (انتصار الشعوب العربية في معركة الاستقلال، وضع حد للتوسع الصهيوني...) إلا أنهما يختلفان في تحديد أسباب فشل النهضة، فنجد في فكر الجابري أسباباً خارجية لم تظهر في فكر حسن حنفي.

باختصار، تجرد مشروع الجابري الفكري لتلافي النقص الذي عاناه مشروع النهضة العربية ولا يزال، وهو النقد المعرفي (الإبستمولوجي) للعقل العربي، وإعادة تأسيس الفكر القومي العربي بمنهج عقلاني وديمقراطي وربطه بالتراث العربي الإسلامي الذي يفتقر إليه في سبيل ميلاد نهضوي جديد.

أما مشروع حسن حنفي فقد تجرد لإعادة بناء التراث وقراءته استكمالاً للإصلاح الديني، ونقله إلى اتجاه تطوره الممكن نحو المثالية المتعالية، فالمثالية هي التطور الممكن للدين في نظره بهدف إعادة بناء المخزون الثقافي لدى الجماهير، ودفعها نحو الإصلاح والنهوض، وتحويل التراث إلى أيديولوجية ثورية.

- ٤ -

بعد غلبة التنظير وسيطرة «المواقف النظرية»، يتوقف الباحث عند: موقف المفكرين من الواقع العربي؛ والواقع العربي الحديث والمعاصر من محددات الوعي النهضوي العربي والإسلامي المتكون من الموقف من التراث العربي؛ والموقف من التراث الغربي الحديث والمعاصر. ويطلق أحياناً على مجمل هذه المحددات ما يسمى

ومضمون أيديولوجي تخلو منهما تماماً مقابلات هذه الكلمة في اللغة الأجنبية الحديثة والمعاصرة، وأن التراث قضية وطنية وقومية أساساً، يندمج المعرفي والأيديولوجي والوجداني في مفهومه.

كما يتفق الرجلان في رفض النزعة السلفية عن الموقف من التراث ونزع القداسة عنه، مثلما يرفضان اتّخاذ الغرب مرجعية.

يختصر المؤلف دعوة حسن حنفي إلى تجديد التراث بالأمور التالية: الانتقال من العقيدة إلى الثورة في علم الكلام، ومن النص إلى الواقع في علم أصول الفقه، ومن الفناء إلى البقاء في علم التصوف، ومن النقل إلى الإبداع في علوم الحكمة، ومن النقل إلى العقل في العلوم النقلية. فيما يدعو الجابري إلى نقد البنية العقلية التي تكونت في التاريخ وتمثلت بالثقافة العربية كبنية محصلة تلفيقية استمرت إلى اليوم، يستدعي التجديد إحداث قطيعة معرفية معها.

أما في العقل العلمي (السياسة والأخلاق) فقد دعا إلى قطيعة مع أخلاق الطاعة الكسروية، وإحلال البدائل التاريخية كالديمقراطية لممارسة الشورى، والنفي التاريخي لمحددات العقل السياسي العربي.

وهنا أيضاً، حبذا لو توقف الباحث عند أنماط معينة من «التلفيق» في التعامل مع التراث مستمدة من الواقع، لكان عمل على كسر حدة «التنظير» في هذا البحث الهام وأضفى على كتابه مسحة «واقعية».

مع نقد للأيديولوجيا السلطانية، التي انتهت إلى الاعتراف بشرعية الأمر الواقع.

أما حسن حنفي فيدعو إلى ضرورة إعادة بناء الموروث السياسي في اتجاه الثورة والتغيير، والتخلص من تقديس الحكام، ووجوب طاعتهم، وهيمنة العقائد الجبرية.

حبذا لو توقف الكاتب هنا؛ عند بعض تجارب دعاة فكر التحديث الذين تسلموا السلطة، وتبيان بعض الأسباب التي أدت إلى فشلهم في تحقيق الأهداف التي أعلنوها، وكيفية تجاوز أسباب هذا الفشل، ولو انطلاقاً من تنظيرات حنفي والجابري.

- ٥ -

يشكل الموقف من التراث عنصراً حاسماً في عملية الانطلاق نحو النهضة والحداثة والتقدم، فهو من أدوات النهضة والحفاظ على الخصوصية. وقد تكثف اهتمام المفكرين العرب بالتراث بعد هزيمة ١٩٦٧.

إنّ الاحتفاء بالتراث وتأكيده الذات عمل مشروع عندما يكون «جزءاً من مشروع للقفزة والطفرة» يقول الجابري، لكن الذي حدث هو العكس، لقد أصبحت الوسيلة غاية، فالماضي الذي أعيد بناؤه بسرعة قصد الارتكاز عليه (النهوض) أصبح هو نفسه مشروع النهضة. لذلك ينخرط السلفي في الماضي كحاضر حي ويستعيد الصراعات الأيديولوجية الماضية، ويبحث له عن خصوم في الحاضر والمستقبل...

يلاحظ المؤلف اتفاق حنفي والجابري في تحديد مفهوم التراث، وبأن التراث، عندنا نحن العرب اليوم، له حمولة وجدانية،

- ٦ -

حنفي اليسار الإسلامي. حاول الجابري إعادة تأسيس القومية العربية بالتراث الرشدني، والديمقراطية والعقلانية. وطرح حسن حنفي تجديد التراث وتطويره في اتجاه العقلانية عن طريق حركة تنوير، والدفاع عن الحريات والديمقراطية والعدالة الاجتماعية. أما القوى التي تقع عليها مهمة تحقيق النهضة فتتمثل بالمفكر والمثقف العضوي، والأحزاب، وتحالف اليسار الإسلامي الذي يجمع بين الشرعيتين: شرعية الماضي وشرعية الحاضر، والجمعيات والمراكز العلمية، بحسب حنفي، والمثقف العضوي، والكتلة التاريخية المكونة من القوى الوطنية التقليدية والعصرية والسلفية بحسب الجابري.

لا شك في أن هذا الكتاب يغني من قراءة العديد من الكتب التي تناولت فكر النهضة، نظراً إلى منزلة كل من حسن حنفي والجابري في هذا الفكر، وإلى براعة المؤلف في تناول أفكارهما وطريقة عرضها، ووفرة الاستشهادات إلى حد قد ينسي القارئ أحياناً أنه يقرأ كتاباً مغايراً لنتاج هذين المفكرين.

إنه باختصار شديد كتاب ممتع لما يقدمه من أفكار وآراء رغم غلبة طابعه النظري، ومنهجيته المحكمة، ورغم ما ورد فيه من تكرار أحياناً ربما فرضته طبيعة الموضوع، إضافة إلى سلاسة أسلوبه وإن لم يخلُ أحياناً من بعض الأخطاء السهلة التجاوز □

يلاحظ الكاتب أن الجابري وصمّ التيارات العربية جميعها بالنزعة السلفية في تعاملها مع مصادرها ونموذجها الحضاري سواء كان عربياً إسلامياً، أو غربياً، وغلبة آلة القياس على فاعليتها العقلية، واقتباس أيديولوجيات غير مطابقة لواقعنا ولا تعبر عنه، وتعاملها مع تراثها الذي تستند به بطريقة لاتاريخية، ولاموضوعية، وهيمنة الطابع التلفيقي، والارتباط بالتيارات اللاعقلانية في التراث العربي، أو التراث الغربي الحديث والمعاصر.

ويتفق الرجلان في ضرورة كشف تاريخية التراث الغربي وكشف نسبيته، كما تعاملنا مع التراث العربي الإسلامي.

ويتكامل الجابري وحسن حنفي في المنطلق الفكري لنقد التراث الغربي والتراث الإسلامي، فعند حسن حنفي يتمثل في إعادة كتابة تاريخ الوعي الأوروبي من منظور إسلامي، وإعادة كتابة تاريخ الوعي الإسلامي من منظور المثالية المتعالية التي هي حلقة الوصل بين الحضارتين إلى جانب العقل والطبيعة. أما الجابري فيرى في العقلانية النقدية المشتركة الحضاري الذي تحتاج إليه النهضة العربية لنقد تراثنا، ونقد الغرب معاً.

يخلص الكاتب إلى أن الرجلين دعيا إلى تبني أيديولوجية مطابقة للواقع، فطرح الجابري السلفية الوطنية، وطرح حسن